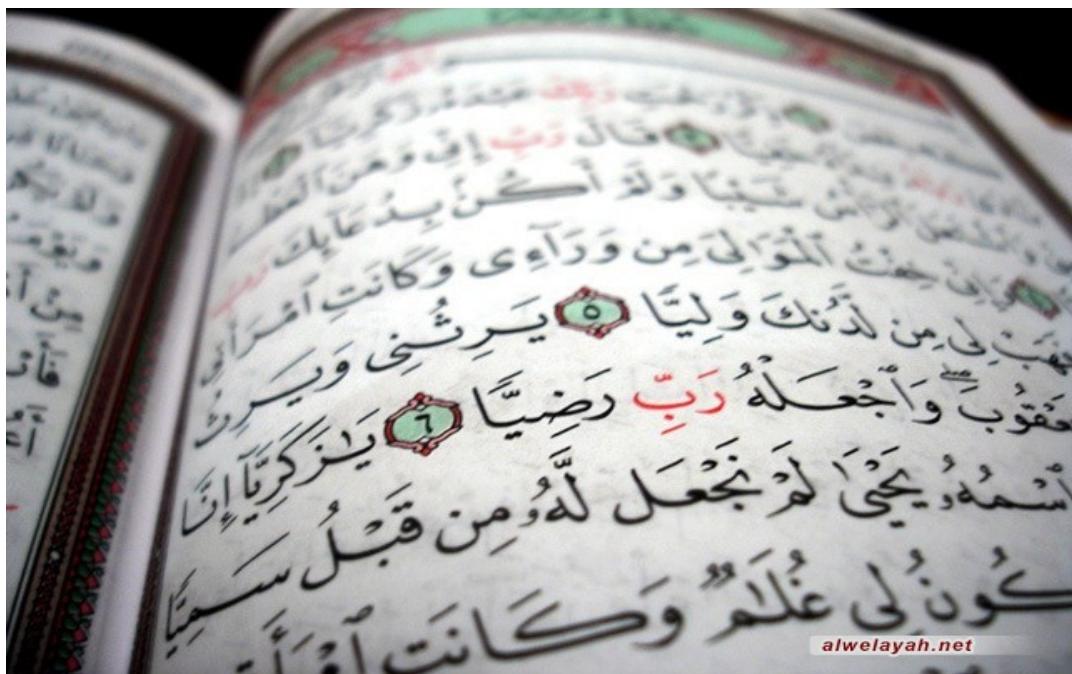


القرآن يهذّب سلوكنا



الشيخ د. علي زين العابدين حرب*

كان التيهُ عقوبةَ بني إسرائيل؛ لما فسقوا عن أمر ربّهم ورفضوا دخول الأرض المقدّسة. وكان العجل، الذي صنعواه وعبدوه، مسداً لأقسام نفوسهم وأصنامها، تلك النفوس الحسيّة المفرطة، القائمة على التعجّل والتهوّر، والجحود والنكران، والجهل المقنّع ونقض العهد والميثاق؛ تاهوا أربعين سنة في الأرض، دون أن يهتدوا إلى أرضهم الموعودة. وبدل أن يتوبوا إلى الله، صارت قلوبهم مشحونة بالبغضاء والكراهة، تضيق بكلّ هدى بشريٍ واستقامة إنسانيةٍ وصلاح آدميٍ وخضع عباديٍ.

إنَّ قصة التيه هذه نموذج واضح عن الضلال الذي قد يصل إليه الإنسان في أيِّ عصر من العصور. ولكن يأبى لطف الله تعالى ورحمته بهم أن يدعهم لا يهتدون سبيلاً، فقدّر أن تكون هدايته للإنسان بكلماته التامّات الباقيات في كتابه الكريم. فكيف يهدي كتاباً سلوكات الناس في عصر التيه هذا؟

يتَّبع القرآن الكريم سُبُل الهدایة والرشاد من خلال دعوته إلى:

1. تبيان الهدایة: لمّا كان القرآن الكريم آخر كتب الله إلى العالمين، فلا بدّ من أن تنفطّن إلى عظامه هدایته وسعتها واستغراقها. وبلوغ ذلك أمرٌ يستحقّ بذلك الأعمار والطاقات. فالكتاب كتاب الله سبحانه، والهدایة غايتها وهدفه لأجل عموم خلقه. يقول ربُّنا الهاي: ﴿إِنَّهُذَا الْقُرْآنُ أَنَّ يَهْدِي لِتَّمَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: 9)، ليؤكد بذلك على أنّ رسالته إلى الناس هادیةٌ على الدوام «للتي هي أقوم». فماذا تعني هذه العبارة؟ لقد ذكر الله الصفة «أقوم» وحذف الموصوف تفخيمًا وتعظيمًا وإيجازًا في السعة والشمول. من هنا، فإنّ «التي هي أقوم» تعني أقوم العقائد والأعمال والأخلاق والطرق والحالات وال العلاقات، في الظاهر والباطن، وفي المشاعر والسلوك، وفي الأفراد والجماعات(1)، وهي تُطلق «فيمن يهدىهم وفيما يهدىهم».

2. اكتساب الفضائل: ينظر جملة من أعلام المسلمين إلى طبيعة الأخلاق في أنّها «هيئه في النفس راسخة»(2)، وتصدر عن هذه الهيئة الأفعال والسلوکات؛ فليست الأخلاق ما يصدر عن الإحسان من هذه السلوكات، إنّما هي أمرٌ باطنيٌ راسخٌ في النفس، وهي صورة النفس أو تشكيلاً لها الاتساعي، الذي ينعكس في السلوكات. غير أنّ هذه الأخيرة، ليست مجرد مرآة صافية حاكية، بل هي ممرٌّ حقيقيٌ لاكتساب النفس للفضائل، من خلال مداومة الآثار السلوكية الطيبة للفضيلة المقصودة، فمن أراد صفة الجود، تكاليف فعل الجود، ومن أراد صفة التواضع، تكاليف صنائع المتواضعين؛ حتى يصير ذلك هيئه راسخة في نفسه وحليةٌ لها.

ومن ناحية أخرى، إنّ العلم داعٍ للعمل والسلوك ومقدمة لهما. فإذا أضاء العلم بيتَ العقل، وبلغ

شعاعه ساحةَ القلب مستقرٌ^١ فيها، نبض القلب وتقليّب على إيقاع العلم. فالعلم بالفضائل وفضائلها، قد يبعث القلب على الاستجابة بالسلوك الفاضل؛ مما يفضي إلى انطباع النفس بالفضيلة الجديدة.

نجد لها تین الجہتین المنهجیتین، المعرفة والسلوك، شیهاً کبیراً فی علم النفس المعاصر، بحيث يقوم العلاج فيه على المعرفة تارةً، وعلى السلوك تارةً أخرى. يسعى المعرفي^٢ إلى التأثير في أفكار الإنسان، في أمره العاجلة الحالية، وصولاً إلى بناء طريقة تفكير سليمة مع مرور الوقت. أما السلوکی^٣ فيتعامل مع سلوك الإنسان مباشرة من جهة تأثره بالبيئة الخارجية؛ لمساعدته على التکید^٤ أو تعديل السلوك⁽³⁾.

لا يتطابق هذا المسايق تمام التطابق مع رؤية أعلام الإسلام -الذين أشرنا إليهم قبل سطور- إلى ما هيّة الخُلُق وكيفيّة علاجه. غير أنّه يلتقي معها في دور المعرفة والفكرة في إحداث تغييرٍ في سلوك الإنسان، ودور هذا السلوك في اكتساب صفات نفسية جديدة.

3. اتّباع الحق^٥: إنّ فروع كلمة الحق^٦ واشتقاقاتها تعود إلى جذر معنويٍّ هو «أحكام الشيء وصحّته»⁽⁴⁾. واستعمالاتها القرآنية تتوافق مع ذلك أيضاً، فهي ترجع إلى «المطابقة والموافقة»⁽⁵⁾، أي مطابقة العدل أو الحكمة وموافقتها. والعدل والحكمة أمران محكمان وصحيحان. ولقد وصف الله نفسه بالحق^٧: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُمَّ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ (يونس: 32). ووصف بالحق^٨ خلقه وما أوجده وما أمر به: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُمَّ ذَلِكَ إِنَّمَا بِالْحَقِّ﴾ (يونس: 5)، و﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (آل عمران: 60). فهو -سبحانه- حقٌّ؛ لأنّه أحكم كلّ شيء وأتقنه وأحسنه، وكان بذلك مصنوعه العلمي^٩ والعملي^{١٠} حقاً أيضاً. عندئذٍ، يكون كلّ^{١١} بعدٍ عن الـ ضلالـ وباطلاً. قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُمَّ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَمَادَ بَعْدَ الْحَقِّ﴾ إِنَّمَا الصَّـلـالـ فَمَـا زـمـلـ تـصـرـ فـونـ (يونس: 32)،

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾⁽¹²⁾ (الحج: 62). لذلك، ليس بين الحق^{١٢} والباطل منزلة وسطى، فإما الحق^{١٣} وإما الباطل: ﴿فَمَمَادَ بَعْدَ الْحَقِّ﴾ إِنَّمَا الصَّـلـالـ.

* الالتزام العملي بالحق*

يلقي الحقُّ -كما يقدِّم القرآن- على عاتق المؤمن التزامات ومسؤوليات عملية متنوّعة. فالحقُّ اسماً وصفة لفعله كما أشرنا. أمّا العبد، فتتوافّف حقانيّته الأخلاقية -التربوية والسلوكية على اختياره وإرادته. نذكر من هذه الالتزامات:

1. المطابقة بين السلوك والشريعة: أي فعل الواجبات وترك المحرّمات وفق أوامر الله ونواهيه، فيكون سلوك العبد حقاً لإحکامه وحسناته، والتتحقق كذلك -ما أمكن ودون تطرف- بدرع المستحبّات والمكرهات؛ فمن اعتناد المستحبّات، لم يترك واجباً قطّ، ومن رتع في المكره، يوشك أن يرتع في ما حرم الله، لأنَّ المكرهات حمى المحرّمات، ومن حام حول الحمى، وقع فيه.

2. تهذيب النفس: يتتأكّد هذا الأمر في النفس الأمّارة؛ لأنها أمّارة بالسوء، وإنَّ اتّباعها ضلال وباطل، وابتعاد كبير عن الحق. وكذلك تربية النفس لتكون عصيّة معصومة عن وساوس الشيطان وهمّزاته وإغراءاته، عندما يمنّ بها بطول الأمل والأمن، ويستدرجها في الباطل خطوة بعد أخرى. قال تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعُهُ فَإِنَّهُ مُرْيَدٌ فِي الْجَنَّاتِ وَالْأَمْنِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور: 21). وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يُرْيَدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَ ذَكْرِ اللَّهِ وَالْمَبَرُورِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَأْمُدَ ذَكْرَهُ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْذَهُونَ﴾ (المائدة: 91).

3. طاعة ولیّ الأمر: من الأشكال الجليّة لاتّباع الحق في هذا الزمان، طاعة ولیّ أمر المسلمين في الأحكام التدبيرية، إذ إنَّه يراعي فيها مصالح المجتمع والأمة، وقوّة الدين ومنعته. وقد تكون مخالفة هذه الأحكام موقعة في الصلاة والباطل أكثر من مخالفه الأحكام الفردية كالصلوات اليومية

إنما لا^١؛ لأن^٢ أثرها اجتماعي^٣ عريض^٤. وحينئذ، تكون المخالفة أشد^٥ ابتعاداً عن «الصحّة والإحكام»، أي عن الحق^٦. ومن هنا، نفهم سر^٧ تشديد النصوص في تحريم الزنا واللواط والسحاق وأشباهها، والربا والغش^٨ في الكيل والميزان، والكذب ونقض الموثيق، حيث إن^٩ اقتراف هذه المحرّمات يضر^{١٠} ببنيّة المجتمع والجماعة والأسرة وتماسكها، وهي كيانات ي يريد لها^{١١} ويباركها؛ لأن^{١٢}ها ضروريّة لكمال الإنسان، الذي هو غاية^{١٣} في خلق الإنس.

إذا عرفت النفس أن^١ الحق^٢ في القرآن اسم^٣ وصفة لفعله التكويني^٤ والتشرعي^٥، وأن^٦ه لا حد^٧ ثالث بين الحق^٨ والضلال أو الباطل؛ فإن^٩ا الحق^{١٠} وإن^{١١}ا الضلال والباطل، فإن^{١٢} ذلك يسبيغ عليها فكرة^{١٣} عميقية^{١٤} جد^{١٥}اً تغيير^{١٦} سلوكها في الحياة، و يجعلها أكثر دقة^{١٧} ورعاية^{١٨} لحدوده سبحانه، ولما يدعوه إليه. وكذلك كل^{١٩}ما عملت النفس من عملٍ وافق شرع^{٢٠} وسلكت سلوكاً مرضيّاً^{٢١} عندـه، صغر أو كبير، فإن^{٢٢} ذلك يُكسبها صفة الحقّانية^{٢٣}، ويبعدها عن ضلال الهوى والشيطان وفتنة جنوده.

هكذا تكون قد سبرنا جنبة^١ من جنبات تأثير القرآن معرفياً^٢ في سلوك الإنسان، وهذا يتـهـ من طلـمـاتـ هذهـ الـحـيـاةـ،ـ وإـنـقـاذـهـ منـ تـيـهـ الأـفـكـارـ وـالـضـلـالـاتـ وـالـبـاطـيلـ وـالـحـيـرةـ فـيـهـاـ.

* أستاذ محاضر في جامعة المـعـارـفـ بيـرـوـتـ،ـ وأـسـتـاذـ فـيـ الحـوـزـةـ الـعـلـمـيـةـ.

(1) المـيـزانـ فـيـ تـفـسـيرـ القـرـآنـ،ـ العـلـامـةـ الطـبـاطـبـائـيـ،ـ جـ 13ـ،ـ صـ 46ـ.

(2) إـحـيـاءـ عـلـومـ الدـيـنـ،ـ الغـرـالـيـ،ـ صـ 611ـ.

(3) Cf. <https://www.healthline.com/health/behavioral-therapy>

(4) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 227.

(5) مفردات القرآن، الراغب، ص 246.

المصدر: مجلة بقية الـ